

تأثير الحضارة الشرقية على الحضارة الغربية

في العصور الوسطى

للكنور كمال فريبر

مدرس آداب اللغة الفرنسية وحضارتها بجامعة عين شمس

أتاح لي قيامي بتدريس الآداب والحضارة الغربية بالجامعات المصرية فرصة طيبة للبحث في مدى تأثير الحضارة الشرقية وفضلها على العالم الغربي في العصور الوسطى في مختلف الميادين العلمية والفنية .

كان البحر الأبيض المتوسط همزة الوصل بين الغرب والشرق ، وقد لعبت الأندلس والبندقية وجزيرة صقلية دورا كبيرا في نقل التراث العربي الى الغرب . ففي العصور الوسطى أنشئ كرسى للغات الشرقية بجامعة باريس ، وترجمت عدة مؤلفات عربية في علم الفلك والطب والرياضة كما ترجم مؤلف في علم الضوء للتخازن الى اللغة اللاتينية حوالي سنة ١٢٠٠ م وقد أفاد العالم الفلكي الألماني المعروف كبلير من هذه الترجمة .

أنشئ في القرن الثاني عشر معهد للترجمين في توليدو قام بترجمة مؤلفات أشهر الكتاب العرب الى اللغة اللاتينية وكان نجاح هذه الترجمات عظيما ، فقد كشفت عالما جديدا للغرب ، وقد ازدادت هذه الترجمات خلال القرون ١٢ ، ١٣ ، ١٤ . ولم يقتصر الأمر على ترجمة مؤلفات العلماء العرب الى اللاتينية بل أيضا مؤلفات العلماء اليونانيين التي سبق ترجمتها الى اللغة العربية وكانت متداولة في العالم الاسلامي . وكان للفكر الاسلامي وتفسيرات ابن رشد التي كانت تدرس في جامعة باريس الفضل في نشر علوم ما وراء الطبيعة (ميتافزيقا) وطبيعة وعلم أخلاق أرسطو في أوروبا اذ كان لابن رشد أتباع كثيرون في باريس . وكان الشرق العربي رمز العلم يؤكد ذلك ارتداء

البرت الأكبر الزى العربى عند حضوره الى باريس فى سنة ١٢٤٥ ليلقى فى الجامعة محاضرة عن أرسطو ، وقد كان العرب يشغلون دائماً بال الفرنجة اذ يقص علينا « آچينهارد » مؤرخ شرلمان فى القرن التاسع أن سكان الجبال فتكوا فى أغسطس سنة ٧٧٨ برجال احدى حاميات جيش شرلمان أثناء عودتهم من شمال أسبانيا مع زعماء ثلاثة كان يدعى أحدهم رولان ، فاذا رجعنا الى الملاحم الشعرية التى قد يكون لها سند ضعيف من التاريخ ، والتى لاشك أنها من نسج خيال الشعراء الذين ينسبون الى الأوروبيين البطولات الوهية التى لا يؤيدها التاريخ نجدهم يروون عن هذه الحادثة أن العرب كانوا يتفوقون على حامية شرلمان مئات المرات وأن رولان هذا مع صحبه كانوا عشرين ألفاً من الجنود الفرنسيين باغتهم أكثر من مائة ألف عربى مسلحين يقودهم اثنا عشر قائدا . فشاهد تفوقهم « أوليقيه » من فوق التل فأسرع الى رولان يطلب منه أن ينفخ فى نفير الحرب لينبه شرلمان الذى وصفوه بأنه ذو اللحية البيضاء ، والبالغ من العمر مائتى سنة ، مع أنه كان فى السادسة والثلاثين من عمره وقت هذه المعركة ، وذلك لكى يعود شرلمان بجيشه . ثم يروى الشعراء أن رولان رفض فى الأول تنبيه شرلمان ، ثم عاد ونبهه ، وأنه لما التحم العرب بالفرنسيين لم يقوا منهم سوى ستين رجلا التفوا حول رولان الذى يدعون أنه اتصر على ابن الحاكم العربى ، وقطع يد أبيه بسيفه . ويختصون الملحمة بأن رولان مات فى النهاية غالباً لا مغلوباً ، ويتضح من هذا الادعاء الخيالى أن العرب كانوا يشغلون دائماً بال الفرنجة .

وكان من ضمن العوامل التى أثرت على شتى وسائل الزينة ، وكان لها أثر واضح على الذوق الأوروبى عامة والفرنسى خاصة اقامة الملك لويس التاسع فى كل من فلسطين ومصر . وقد جمع فردريك الثانى والقونى الخامس حولهما علماء كثيرين من العرب وكانا يعيشان عيشة ترف ذات طابع شرقى . وكان ملوك ونبلاء العرب يقتنون المصنوعات العربية الاسلامية ، فاذا اطلعنا على قوائم مقتنيات الملك شارل الخامس نجد أنه ورد فيها ذكر الأواني الزجاجية

والمسوجات والمعادن المصنوعة في البلدان الاسلامية والمنسوبة الى دمشق وغيرها من المدن ، ولو أنه لا يمكننا أن نجزم بأن كل ما ذكر في هذه القوائم صنع في الشرق ، اذ أن العظماء والنبلاء في العصور الوسطى اعتادوا أن ينسبوا الى الشرق صنع كل شيء غريب لتكسبه هذه التسمية قيمة كبرى لما توحى به من روعة وجمال الفن في عصر الخلفاء .

واذا كانت هنالك بعض المبالغة الا أنه قد ثبت أن الغرب كان يستورد المسوجات الحريرية من دمشق وبغداد والموصل والمسوجات الصوفية السوداء والحمر الزينة برسوم تمثل العصافير ذات اللون الذهبي أو الأزرق من أنطاكية و « التفتاه » من بلاد فارس والديكة (البيكة) المزينة بالزهور الذهبية اللون من الاقليم المصرى ، وكانت الاسكندرية مركزا هاما لتصدير مختلف البضائع الى البلاد الغربية التي كانت تستورد علاوة على المسوجات ، السجاجيد من آسيا الصغرى وسوريا ومصر والتركستان والقوقاز ، وقد شاهدنا رسمها في بعض اللوحات القديمة المحفوظة في البلدان الغربية .

ولم يلبث الغربيون أن أنشأوا بعد ذلك مصانعا محلية لانتاج الأقمشة المختلفة ذات الطابع الشرقى . ولقد أجمعت عدة نصوص على ازدهار الصناعات في المدن الأندلسية التي اشتهرت بالأقمشة الحريرية المذهبة التي أثارت اعجاب الجميع ، وكانت في البداية تنقش بعض الأشكال الخيالية على المسوجات ولكنها اتجهت الى الرسم التجريدى لأنه أكثر توافقا مع الاسلام . وقد انتشرت مثل هذه المصانع في بالرمو بايطاليا لتغذية الأسواق الأوروبية الهامة بالأقمشة المصنوعة على النمط الشرقى . وكان يقوم بالعمل في هذه المصانع بعض العمال العرب الى جانب اليونانيين والايطاليين الذين كانوا يحرصون أشد الحرص على تقليد النماذج البيزنطية والاسلامية ، ولكن لم يستمر الحال طويلا في هذه المصانع لرحيل العمال العرب الى جنوة وفلورنسا والبندقية على أثر حصول اضطرابات في المدينة حوالى نهاية القرن الثالث عشر . وقد أنشأت باريس أيضا صناعات عربية أسوة بباقي المدن الغربية الكبرى . ومما يجدر بالذكر أن المواد

الأولية كانت ترد من الشرق . ولم يقتصر الأمر على الأقمشة بل امتد الى صناعة الخزف وصياغة الذهب . وهكذا يتبين لنا جليا أن الغرب افنتن بالشرق وصناعاته وحاول تقليدها نظرا لشدة اعجابها بها .

وقد أثر الفن العربى على الفن القوطى وخاصة فى محاولة تقليد الخط الكوفى الذى ظهر فى بعض الكتب الدينية الغربية . وكان الأوروييون يكتبون أحيانا سورة قرآنية مقلدين الخط العربى على المصنوعات ذات الطابع الشرقى . وقد أكسب الخط الكوفى النقوش التى كانت تعتمد على حرفى الألف واللام طابعا خاصا .

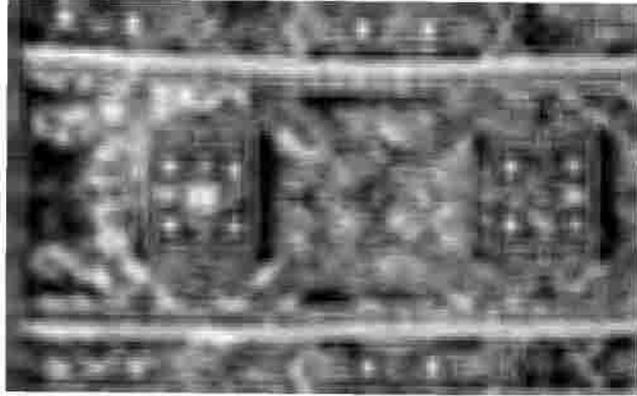
ويمكننا أن نؤكد اندماج الفن الاسلامى فى حالات كثيرة مع الفن القوطى اذ أنه بعد الخط الكوفى لاحظنا العناية بنقش الزهور والأشكال الهندسية المتشابكة التى أبدع فيها المهندسون المسلمون التى زينت المخطوطات القوطية . وهاهو الفنان الشهير « ليونارد دى فنشى » قد اقتبس الكثير من روعة الفن الشرقى وأشكاله المتشابكة . وكان من بين وسائل الزخرفة رسم الحروف متشابكة بعضها بخط سميك والبعض الآخر بخط رفيع ، وقد ظهر ذلك فى بعض الكتب الى جانب الزهور . واستعملت وسيلة أخرى للزخرفة يرسم نصف ورقة الشجر ذات الحد (المدببة) المنتشرة فى الشرق الاسلامى أو مجموعة من أوراق الشجر والزهور معا ، وكانت هذه الوسيلة مستخدمة فى الشرق لتزيين القرآن الكريم والخزف الفارسى والنقش على العاج فأدخلت فى الفن القوطى ، ويظهر التشابه العظيم بمقارنة بسيطة بين بعض نسخ من القرآن الكريم المزينة فى القرن الثانى عشر وبين بعض الصناعات الغربية فى العصور الوسطى .

وإذا تطلعنا الى الجمادات « الايقونات » التى تلعب دورا كبيرا فى الاطارات القوطية نجدها مقتبسة أيضا من الشرق ، فنرى مثلا أن الدوائر والمنابر المنقوشة على العاج والنقود مقتبسة من الأندلس العربى ، ونجد أن الاطارات الجميلة المصنوعة فى القرنين العاشر والحادى عشر منقوشة على العلب الأندلسية

والمسوجات الشرقية . ولذا يمكننا أن نقرر أن هندسة الجوامع كانت متشابهة في الشرق والغرب . وأن عصر النهضة قد أعجب بها وأقر أنها منقولة عن الفن الاسلامي . وهكذا يتضح لنا أنه كان لانتشار الزخرفة العربية الاسلامية تأثير كبير على الفن الغربي في عدة دول اوروبية كإيطاليا وفرنسا وألمانيا ، كما كان لفن العمارة العربية تأثير عظيم على الفن القوطي في المباني الدينية والقصور والحصون نتيجة للحروب الصليبية خاصة . وقد سرت أيضا روح الفن العربي من صقلية الى أنحاء أوروبا .

فاذا انتقلنا أخيرا الى الموسيقى العربية نجد أنها أثرت على الموسيقى الغربية باعتراف كبار الموسيقيين الأوروبيين في القرن الثالث عشر . ونلاحظ جليا أثر الألفام والألحان العربية في الموسيقى الاسبانية بوجه خاص واطلاق أسماء بعض الآلات الموسيقية العربية على الآلات الغربية فسمى العود « لوت Luth » والقيارة « جيتار guitare » والرباب « ريبك rebec » . وقد أثر الشعر الغنائي العربي العاطفي على شعراء جنوب فرنسا المرتزقين بآلاتهم الموسيقية حتى أنهم سموا « بالطروبادور troubadour » نسبة الى دور الطرب العربية .

وخلاصة القول أن الحضارة الشرقية أثرت تأثيرا مباشرا على الحضارة الغربية في العصور الوسطى .



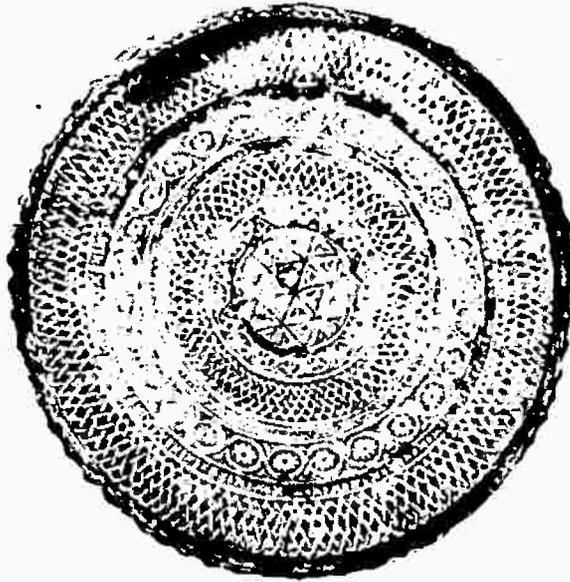
قماش اندلسى مغربى مطرز بمتحف كلونى بفرنسا
يرجع تاريخه الى العصور الوسطى



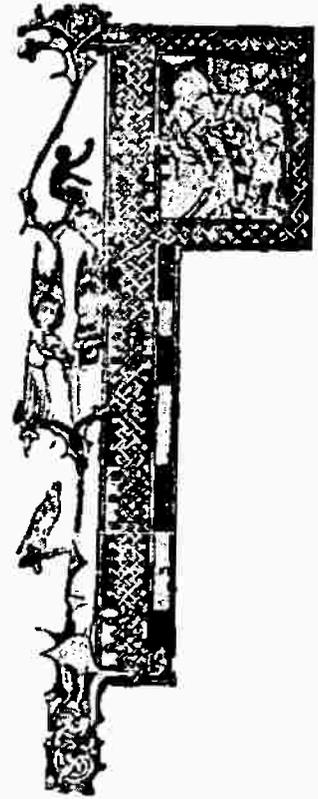
سفر الرؤيا الزين بالخط الكوفي بسان سيقر بفرنسا ، ويرجع تاريخه الى سنة ١٠٢٨ م تقريبا



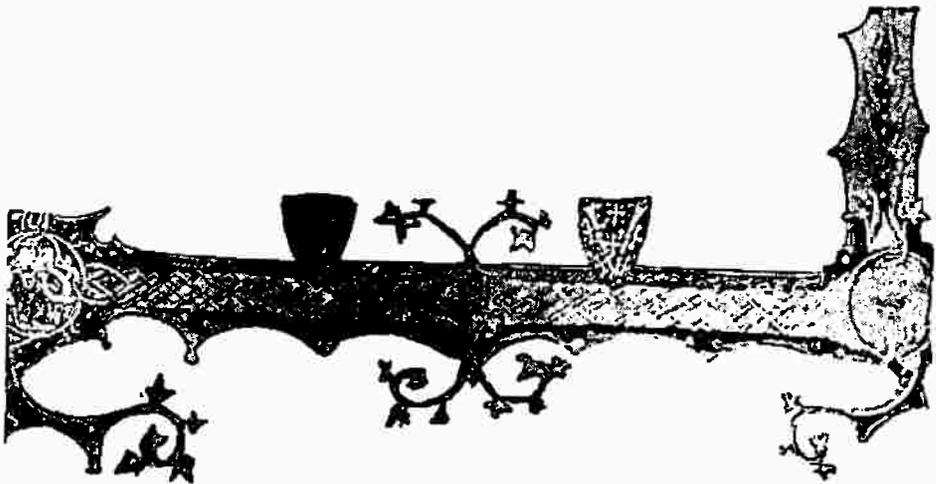
كتاب مزخرف بالخط الكوفي كان لدى الملك لويس التاسع ، يرجع تاريخه الى سنة ١٢٥٤ م تقريبا



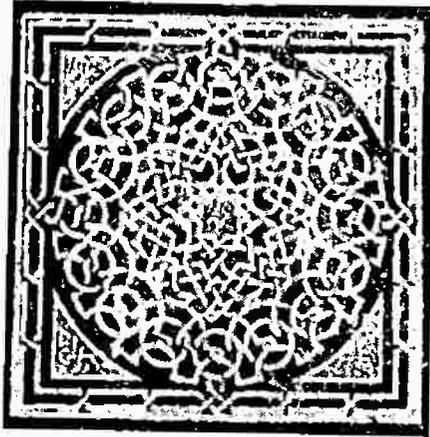
طبق فاكهة فارسي منقوش عليه الزهور والأشكال الهندسية
المتشابكة من القرن الحادي عشر



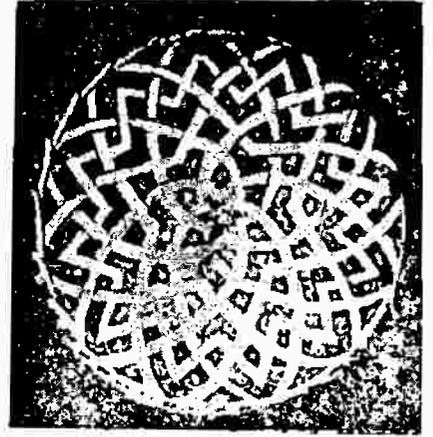
→ كتاب بلجيكي مرسوم عليه الأشكال الهندسية
المتشابكة ، يرجع تاريخه الى أوائل القرن
الرابع عشر



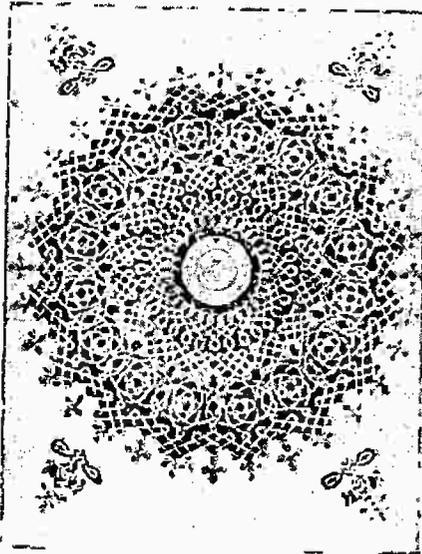
كتاب انجليزي مزين بالأشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى أوائل القرن الرابع عشر



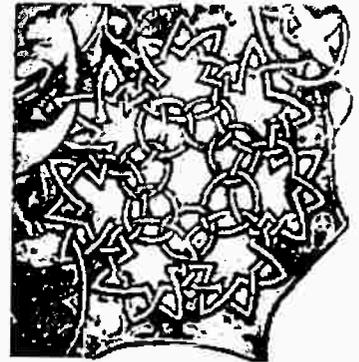
قرآن مغربي لمولاي زيدان .. مزخرف بالاشكال الهندسية المتشابكة ، يرجع تاريخه الى المصور الوسطى



كاس (سلطانية) مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة صنع في قاشان ببلاد فارس في القرن الثالث عشر



اشكال متشابكة للفنان الإيطالي الشهير ليونارد دي فنشي



كتاب مزامير مزين بالاشكال الهندسية المتشابكة يرجع تاريخه الى اوائل القرن الرابع عشر



خطوط فارسي مزين بورق الشجر يرجع تاريخه الى سنة ١٣٠٠ م



زخرفة من العصر العباسي معتمده على نعل ورقة الشجر ذات الحد ببلدة ساره يرجع تاريخها الى حوالي سنة ٨٣٦



كتاب ديني يمتز بفرنسا مزين بأنصاف اوراق الشجر من اواخر القرن الثالث عشر



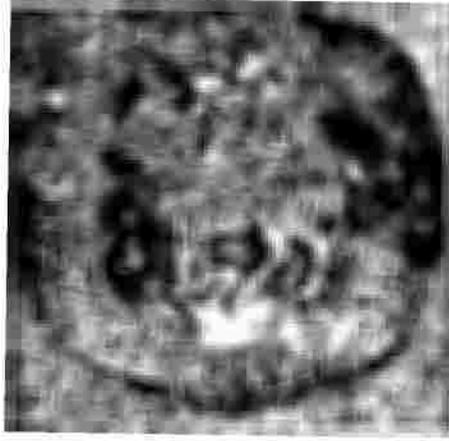
عاج منقوش به أنصاف اوراق الشجر بفرطبة من القرن الحادى عشر



كتابان من الكتب الدينية بمدينة لوسون وبيلفيل بفرنسا من القرن الرابع عشر



خطوط محاطة بأهداب كالساجيد في سنة ١١٨٦ .. نسخة من القرآن الكريم مزخرفة الشرقية



جامه منقوشه على منسوجات شرقية من القرن
الحادى عشر موجودة بمدينة دورهيم بالانجلترا



جامات منقوشه على منسوجات ألمانية بدير ايزنهاجن من النصف الثانى
من القرن الثالث عشر



جامات منقوشه على النحاس بالموصل يرجع تاريخها الى سنة ١٢٢٨ تقريبا



جامات منقوشة على منسوجات المانية بدير ايسدوروف من اواخر القرن الثالث عشر
وأوائل الرابع عشر



بقايا الحصن الذي شيده ريتشارد قلب الأسد سنة 1196 م ، واتم بناءه
الملك فليب أوجست بعد استيلائه عليه في سنة 1204 م ، ويتجلى في هذا
الحصن تأثير الحصون الفلسطينية